﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تُمثِّلُ هذه الآيةُ بدايةَ مقطعٍ جديدٍ، يتناسبُ مع المقطعِ السَّابق المبدوءِ بخطابِ النَّاسِ جميعًا، والمختَتَم بذكرِ خلقِ الأرضِ والسَّماوات، ليكون هذا المقطعُ محدِّدًا الغايةَ التي خلقَ اللّه السَّماوات والأرضَ والنَّاسَ لها، فيكون ما تقدَّم بمثابة التوطئةِ والتَّمهيد لما سيتعيَّنُ ذكرُه في هذا المقطعِ، وليكون ما بعدَه من المقاطعِ الواردةِ إلى نهايةِ السورةِ بمثابةِ استكمالِ أركانِ الخلافةِ التي أرادَها اللّه في آدمَ وذريَّتِه، وبه يكونُ هذا المقطَعُ محوريًّا في السُّورةِ كلِّها.

وفي ذلك قال أبو حيّان الغرناطي: "مُناسَبَتُها لما قَبْلَها: أنَّهُ لَمّا امْتَنَّ عَلَيْهِمْ بِخَلْقِ ما في الأرْضِ لَهم، وكانَ قَبْلَهُ إخْراجُهم مِنَ العَدَمِ إلى الوُجُودِ، أتْبَعَ ذَلِكَ بِبَدْءِ خَلْقِهِمْ، وامْتَنَّ عَلَيْهِمْ بِتَشْرِيفِ أبِيهِمْ وتَكْرِيمِهِ وجَعْلِهِ خَلِيفَةً وإسْكانِهِ دارَ كَرامَتِهِ، وإسْجادِ المَلائِكَةِ تَعْظِيمًا لِشَأْنِهِ وتَنْبِيهًا عَلى مَكانِهِ واخْتِصاصِهِ بِالعِلْمِ الَّذِي بِهِ كَمالُ الذّاتِ وتَمامُ الصِّفاتِ، ولا شَكَّ أنَّ الإحْسانَ إلى الأصْلِ إحْسانٌ إلى الفَرْعِ، وشَرَفُ الفَرْعِ بِشَرَفِ الأصْلِ"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: الهمزةُ واللَّامُ والكافُ تَدُورُ اشْتِقاقَاتُهَا على تحمُّلِ الرِّسالة[2]، ومِنْ ذلكَ: الأُلُوكَةُ وَالمَأْلُكَة؛ وهي الرِّسالة[3].

والملائِكَةُ: عالَمٌ غَيْبِيٌّ، خلقَهُمُ اللّهُ سبحانه مِن نُور، وجعلَهم طائعين لَهُ لَا يعصُون

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/378-379.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ألك).
(3) ابن الأثير، النِّهاية: (ألك).

أمرَه[1]، وسُمُّوا ملائكةً؛ لأنَّهم يُبلِّغُونَ أَلَائِكَ اللهِ تعالى ورسائلَه إلى مَنْ يشَاءُ مِن عبَادِهِ[2]، كما قال اللهُ تعالَى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: 1].

2) ﴿خَلِيفَةً﴾: الخاء واللَّام والفاء تدلُّ تصَاريفُها على معانٍ، مِنْهَا: أَنْ يجيءَ شيءٌ بعد شيءٍ يقومُ مقامَهُ[3]، ومِنْهُ الخَلِيفةُ؛ وهو: مَنِ اسْتُخْلِف مكانَ مَن كان قبلَه وقامَ مَقَامَهُ[4].

وأمَّا قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً﴾؛ فَفِيهِ وَجْهَان[5]:

أحدهما: أنَّ المرادَ آدمُ عليه السلام.

والآخَر: أنَّ المرادَ ولدُ آدمَ، بدَلِيلِ قولِ اللهِ تعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: 165].

فأمَّا على الوجه الثَّاني؛ فإنَّ معنى الخليفةِ: قومٌ يخلُفُ بعضُهم بعضًا.

وأمَّا على الوجه الأوَّلِ؛ فالمعنى: أنَّه خلَفَ مَنْ سَبَقَهُ في الأرضِ، أو أنَّه خليفةُ اللهِ تعالى في إقامة الشَّرعِ[6].

3) ﴿وَيَسۡفِكُ﴾: السِّينُ والفاءُ والكَافُ تدلُّ على الإِسَالَة، يقال: سفكَ دمَهُ؛ إذا أسالَهُ وصبَّهُ[7]، والسَّفْكُ يُستعمَلُ لكلِّ مائعٍ، إلَّا أنَّه بالدَّمِ أخصُّ[8].

ومِنْهُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ أي يَصُبُّها بِقَتْلِ أَصْحَابِها[9].

4) ﴿نُسَبِّحُ﴾: التَّسبيحُ: التَّنزيه، وتسبيح اللهِ تعالى: تنزيهُهُ مِنْ كلِّ سوء[10]، ويُطلَق التَّسبيح على الصَّلاةِ[11].

---

(1) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/59.
(2) قولنا: (مِنْ عباده) أعمُّ وأدقُّ مما قاله الأنباريّ: (أنبيائِه). ينظر: ابن جرير، جامع البيان: 20/434، والأنباريّ، الزَّاهر: 2/254.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلف).
(4) الخليل، العين: (خلف).
(5) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيَّات، ص: 427.
(6) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/50، ويُنظر لِلْفَائدة: فتاوى اللَّجنة الدَّائمة: 1/72.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سفك).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (سفك).
(9) السّمين، عمدة الحفَّاظ: (سفك).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).
(11) الأنباريّ، الزَّاهر: 1/50.

وخُرِّج التَّسبيح في قولِ اللّه تعالى حكايةً عنِ المَلائكةِ: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ علَى المَعْنَيَيْنِ المذكُورَين:

الأوَّل: نَحْمَدُكَ ونصلِّي لك[1].

والآخر: نُنَزِّهُك مِنَ السُّوء تعظيمًا لك[2].

5) ﴿وَنُقَدِّسُ﴾: القاف والدَّال والسِّين تدلُّ اشتقاقاتُها على الطُّهْرِ[3]، والتَّقديس: التَّطهير[4]، ومِنْهُ: الأرض المقدَّسة؛ أي: المطهَّرة[5]، ومِنْهُ اسمُ اللّه القُدُّوس؛ ومعناه: المُعَظَّم المنزَّه عن كلِّ سُوء، السَّالمُ مِنْ مُماثلة أحدٍ مِن خلقِه ومِنَ النُّقصان ومِن كلِّ ما ينافي كمالَهُ[6].

وقولُه تعالَى حكايةً عَنِ الملائكةِ: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: نطهِّر أنفسَنا لَكَ[7]، أو ننزِّهُك عمَّا لا يليقُ بك[8].

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

تناولتِ الآيةُ أوَّل حوارٍ ذُكِرَ في القرآنِ الكريم، وهو قولُ اللّه سبحانه لِلْمَلَائكة: إنِّي جاعلٌ في الأرض خليفةً لِيَعمُرَها ويخلُف بعضُهم بعضًا، فسألتِ الملائكةُ ربَّها ﷻ سؤالَ استرشادٍ واستكشافٍ وتعجُّبٍ: ما الحكمةُ مِن جعلِهم خلفاءَ وطَبْعُهم الإفسادُ وإراقةُ الدِّماء، والحالُ أنَّنا نُنَزِّهك عمَّا لا يليق بكَ تنزيهًا مقرونًا بذكر صفات الكمال، ونعظِّمُكَ ونُطهِّر أنفسنا لك ونطهِّرها مِنْ طَبْعِ أولئكَ؟ فأخبرهم ربُّ العزَّة والجلال: إنِّي أعلَم مِنَ المصالحِ الرَّاجحة والحِكم الباهرة في خلقِهم واستخلافِهم ما لا تعلمونَه[9].

(1) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 1/36.
(2) الماورديّ، النُّكَت والعيون: 1/96-98.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قدس).
(4) الجوهريّ، الصِّحاح: (قدس).
(5) الفيّوميّ، المصباح المنير: (قدس).
(6) سعيد القطحانيّ، الثَّمر المُجْتَنَى، ص: 68.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قدس).
(8) الواحديّ، التفسير البسيط: 2/331.
(9) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/51، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/216، والسعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 48، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/395-407، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 6.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ الإيجَازِ بِالحَذْفِ:

التَّرَقِّي مِنَ الأَدْنَى إِلَى الأَعْلَى أَوِ العَكْسُ بِالتَّذْكِيرِ بِالأَدِلَّةِ الأَنْفُسِيَّةِ والآفاقيَّةِ

(إِذْ) ظرفُ زمانٍ مبنيٌّ على السكون متعلِّق بفعلٍ محذُوفٍ تقديرُه: (اذكُرْ)[1]، وعليه ففي الآية إيجازٌ بالحذفِ؛ فقد حُذف الفعلُ وفاعلُهُ وهو (اذْكُرْ)، وتقديرُ هذا الفعل يستلزِمُ تذكِيرًا متجدِّدًا، فيكون قولُه سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29] متعلِّقًا بأدلَّة الآفاق، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ متعلِّقًا بأدلة الأنفس على سبيلِ التَّرقِّي[2]، كما في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: 53].

ويُمْكِن أن يُنظر إِلَيْهَا باعتبارها نِعْمَةً؛ فيكون فيه تَرَقٍّ مِنَ الأدنى إلى الأعلى؛ إذ إنَّ "نعمةَ خَلْقِ الأنفس وتشريفها بالخلافَةِ وتكريمها بسجود الملائكة أعظَمُ مِن خَلْقِ ما في الأرض لَهُمْ جميعا"[3].

وقد قال أبو عبيدة بأنَّ (إِذْ) زائدةٌ[4]، وتَبِعَه ابنُ قُتَيْبَة[5]، واستدرك عَلَيْه هذه المقالةَ جماعةٌ مِن أهل العلم، مِنْهُمُ ابنُ جرير رحمه الله، فقالَ: "غيرُ جائزٍ إبطالُ حرفٍ كان دليلًا على معنًى في الكلام"[6]، وهذا هو المهْيَعُ الحقُّ في المسألةِ، إذ لا زوائدَ في القرآن الكريم؛ فلكلِّ لفظٍ فائدتُه ومعناه الذي لأجلِه كان النَّظمُ على ما هو عليه.

نُكْتَةُ وَضْعِ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ:

تَمْكِينُ المَعَانِي فِي ذِهْنِ السَّامِعِ فِي المَقَامَاتِ الشَّرِيفَةِ

في قولِه سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ وضعُ المظهَرِ موضعَ المضمَرِ؛ فإنَّ مقتضى الظَّاهر أَنْ يُقالَ: وإذ قال لِلْمَلَائكةِ، وذلك لِتَقَدُّمِ ذِكرِهِ

(1) وفي إعرابها بغير هذا خلافٌ، يُنظر: الدر المصون، السمين: 1/248، والآلوسّي، روح المعاني: 1/220، وأحمد الدعَّاس وآخران، إعراب القرآن: 1/19.

(2) التَّرَقِّي: أن يُذكرَ المعنى ثُمَّ يُزْدَفَ بما هو أبلغُ مِنْهُ، ينظر: السُّيوطيّ، شرح عقود الجمان، ص: 135.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 2/424.

(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/37، وفي تفسير الرّاغب: 1/138، نسبةُ هذا القول لأبي عُبيدٍ؛ وهو القاسم بن سلَّامٍ، والظَّاهر أنَّ هذا خطأٌ مِنَ النَّاسخ أو تصحيف مِنَ الطَّابعِ، والصَّواب: أبو عبيدة.

(5) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 158، وغريب القرآن، ص: 45.

(6) ابن جرير، جامع البيان: 1/440.

قبلُ، والنُّكْتَةُ فيه: تمكينُ المسنَدِ إليْهِ في ذهن السَّامعِ؛ لاقتضاءِ المقامِ العنايةَ بشأنِه؛ فإنَّه وَإِنْ صحَّ أن يَنُوبَ عَنْهُ الضَّمير -على الأصلِ-، إلَّا أنَّ الضَّمير لا يُغْنِي عَنِ الاسم الظَّاهر؛ لِمَا يتضمَّنُهُ الاسمُ الظَّاهر مِن معنًى له وقعٌ عِنْدَ المتلقِّي، وهُو هُنَا اسمُ اللهِ (الرَّبِّ)[1].

سِرُّ اخْتِيَارِ اسْمِ الله (الرَّبِّ):

التَّناسبُ السِّياقيُّ في اختيارِ الاسمِ الأنسبِ للمعاني

اختيارُ الألفاظِ القرآنيَّةِ قائمٌ على التَّناسبِ السِّياقي، ولمَّا ذكر السِّياقُ أمرَ الخلْقِ وما يحتاجُه بعد ذلك من التَّدبيرِ واللُّطفِ والصَّلاحِ، كان الأنسبُ أن يذكرَ الرُّبوبيَّة؛ "ففي ذلك الجَعْلِ نعمةُ تَدْبيرٍ مشوبٍ بلُطْفٍ وصلاحٍ، وذلكَ مِن معاني الرُّبوبيَّة"[2].

إضافةُ اسمِ الرَّبِّ إلَى النَّبيِّ ﷺ تشريفٌ بكَوْنِهِ أعظمَ خلفاءِ بَنِي آدمَ

واجتمعَ في قولِه تعالَى: ﴿رَبُّكَ﴾ اسمُ الرَّبِّ مضافًا إلى كافِ الخطابِ المقصودِ بها سيِّدُ الخلْقِ ﷺ، وبهما يصلحُ أمرُ الدُّنيا؛ الرُّبوبيَّةُ التي بها تربيةُ الخَلْقِ، والرَّسولُ الذي هو وسيلةُ تربيةِ الخَلْقِ، وفي ذلك تشريفٌ لرسولِ الله ﷺ، أن يكونَ مُربِّيًا للخَلْقِ جميعًا، وهذا ما يقتضيه المقامُ؛ إذْ إنَّ الآية في ذِكْرِ خلقِ آدمَ عليه السلام واستخلافِه وبَنِيه في الأرض؛ فناسب أنْ تُذكر الرُّبوبيَّةُ مضافةً إلى أعظَمِ خلفائِه[3]، وهي رِفعةٌ وإكرامٌ له إذ تقدَّمَ ذكرُه على ذكرِ آدم عليه السلام، ويُشعِرُ النَّظمُ بإنزالِ النَّبيِّ ﷺ منزلةً خاصةً يُحيطُ بها التَّحبُّبُ بأن وجَّه له الخطابَ بخصوصِه.

الِالتِفَاتُ مِنَ الجَمْعِ إِلَى المُفْرَدِ لبيانِ أنَّ الغَيْبَ لا تهتدي إليه العُقُولُ:

تناسُبُ الخِطابِ القرآنيِّ مع الحديثِ عن الغيبِ والشَّهادة

غُويرَ الخطابُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ إذِ الخطابُ كان موجَّهًا بطريقِ الجَمْعِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾، ثُمَّ صارَ الخطابُ لواحدٍ -وهو ضربٌ من ضروبِ الالتفاتِ في العَدَدِ[4]-،

(1) حسن الجناجي، البلاغة الصَّافية، ص: 131.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/401.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/129.
(4) عبده قلقيلة، البلاغة الاصطلاحيَّة، ص: 322-321.

ونُكْتَةُ تغيير الخطاب بتوجيهه إلى النَّبيِّ ﷺ هو الإيماءُ إلى أنَّ مضمون الكلام ليس مِمَّا تهتدي إِلَيْهِ العقولُ، بل طريقُهُ الوحيُ، بخلاف ما سبقَ؛ فإنَّه مِنَ الأمورِ المشاهدَةِ العامَّةِ[1].

معنى اللَّامِ في كلمةِ ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

خِـطَـابُ اللـه تعالى لِجَمِيعِ الـمَـلَائِـكَـةِ هـو الأنـسـبُ بالمقامِ والأوفـقُ بالسِّياقِ

اختُلِفَ في مَعنَى اللَّام في لَفْظِ ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ على أَوْجُهٍ ثلاثَةٍ[2]:

الأوَّل: استغراقُ جميعِ أفرادِ الجِنْسِ؛ فتكون اللَّامُ لِلاستغراقِ الحقيقيِّ.

الثَّاني: لامُ الجِنْسِ، وَالمرادُ: أَنَّهُمْ جنسٌ خاصٌّ مِنَ الملائكةِ.

الثَّالث: لامُ العَهْدِ؛ فيكون المقصودُ ملائكةً معروفين؛ لتقدُّمِ ذِكْرِ الملائكَةِ في الكتب السَّابقَةِ.

والوجهُ الأوَّلُ أَظْهَرُ الوجوه، وأولاها بالقبولِ؛ لعمومِ اللَّفظ وخلوِّ المقامِ من الدَّليل المُخَصِّصِ، وهو يشملُ الوجه الثَّاني، ولا ينافي الثَّالثَ؛ إِذْ يجوزُ أن يكونَ اللفظُ المحلَّى باللَّامِ معهودًا عمومُهُ، وهو الأوفقُ بالسِّياقِ.

بلاغةُ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ المُطَّرد:

إظـهـارُ أهـمـيَّـةِ الخِطَابِ بتقديمِ الـمُـخـاطَـبِ عنايةً، وتأخيرِ القولِ تشويقًا

جرى أُسلُوبُ القرآنِ على العنايةِ بإبرازِ المعاني من خلالِ تنبيهاتِ النَّظم وإشاراته؛ فقُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ للتَّنبيهِ على أهميَّة الخطابِ بتقديمِ من وُجِّه له الخِطابُ؛ فتكون العنايةُ به أشدَّ، وللتَّشويقِ إِلَى القولِ المؤخَّرِ[3]؛ فإنَّ معرفةَ أهميَّةِ الخطابِ لها ركنان، تقديمُ المخاطَبِ، وتأخيرُ القولِ، إظهارًا لأهميَّةِ المخاطَبِ بتقديمِه، وتشويقًا لمعرفةِ مضمونِ الخطابِ بتأخيرِه.

اختيارُ اسمِ الفَاعِلِ لتوكيدِ الوقوعِ حتمًا:

اختير اسْمُ الفاعلِ دون الفعل المضارِعِ في قولِه تعالى:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/79.
(2) الجرجانيّ، درج الدّرر: 1/137، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 1/67.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/80.

﴿جَاعِلُ﴾، ولم يقُل: (سأجعل)، واسمُ الفاعلِ دالٌّ على المستقبَلِ بدليل نصبِهِ ﴿خَلِيفَةً﴾، وهو لا يعمل هذا العمَلَ إلَّا إذا دلَّ على الحالِ أَوِ الاستقبالِ[1]، ودِلالتُهُ على الحالِ هَهُنا مُنْتَفِيَةٌ، فلم يبقَ إلَّا الاستقبال، ونكتةُ التَّعبيرِ به لِمَا في اسمِ الفاعِلِ مِنَ الدّلالة على تحقُّقِ فِعْلِهِ المذكور وأنَّه كائنٌ بلا شكٍّ[2]، وهو دليلُ العظَمَةِ والتَّمكُّنِ في الخطابِ، ويؤيِّدُهُ لزومُ (إنَّ) في مِثْلِ هذا؛ وهي دالَّةٌ على تقوية الكلام وتوكيدِهِ[3].

تَقْديمُ الجَارِّ والمَجْرُورِ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على ﴿خَلِيفَةً﴾:

أهميَّة الأرض لدى الملائكة وتشويقهم لسماعِ الخَبرِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على ﴿خَلِيفَةً﴾؛ لبيانِ أهميَّةِ الأرضِ لدى الملائكَةِ؛ فَهُمُ الذين شاهدوا خلقَها، وطلبوا -كما سيأتي في تضاعيفِ الكلامِ- الحياةَ فيها؛ فكان للتَّقديم شأنٌ عظيمٌ لديهم، وهو ما يُبرزُ عنصرَ التَّشويقِ لمعرفةِ ما المجعولُ فيها؟ وما الكائنُ فيها؟ وهو الذي يُؤكِّدُ نكتةَ اختيارِ اسمِ الفاعلِ، فوقعتْ كلمةُ ﴿خَلِيفَةً﴾ قويَّةً في أسماعِهم، وهو ما يجعلُ المخاطَبين بالقرآنِ يحرصون على الأرضِ التي يسكنونها من الفسادِ والمفسدين.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي لَفْظِ ﴿خَلِيفَةً﴾:

مدْحُ القائِمِ بأمرِ الله تعالى على أتمِّ وجْهٍ؛ لقيامِه بالمطلوبِ على التَّمامِ والكمالِ

تتحدَّدُ الاستعارةُ بتعيينِ المقصُودِ بالألفاظِ، فإذا حملنا لفظَ (الخليفة) في الآيةِ القرآنيَّةِ على معنى أنَّه خليفةُ اللّه تعالى في إقامة الشَّرْعِ؛ فإنَّ هذا اللَّفظَ مستعمَلٌ استعمالًا مجازيًّا؛ إذْ حقيقةُ الخليفةِ: مَنِ اسْتُخْلِفَ مَكانَ مَن قبلَهُ وقامَ مَقامَه، واللّه ﷻ لَمْ يكُن حالًّا في الأرضِ ولا عاملًا فِيهَا العملَ الذي أمر بِهِ العِبَادَ[4].

(1) ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد: 3/73.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/80.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/225.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/401.

فيكونُ لفظُ ﴿خَلِيفَةَ﴾ مجازًا بالاسْتِعَارةِ؛ فشُبِّه مَن يعملُ عملًا يريدُهُ المستخلِفُ بمَنِ استُخلِفَ مكانَ مَنْ قبلَهُ وقام مقامَهُ؛ بجامعِ أنَّ كلَيْهِمَا مُوَكَّلٌ بعملٍ يَعْمَلُهُ، على طريقة الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ، وَالعدُولُ إلَى الاستعارةِ أَدْخَلُ في مَدْحِ من قامَ بالخلافةِ على الوجهِ المطلُوبِ؛ لأنَّه يُحقِّقُ المُرادَ كما يطلُبُه المستخلِفُ، وهذا غاية في النَّفاسَةِ.

تناسُقُ الفَصْلِ بين الجملِ:

إظهارُ ما يجولُ في كامنِ نفوسِ الملائكةِ

للفصْلِ بين الجملِ بلاغةٌ عاليةٌ، لاسيَّما في المحاوراتِ والمقاولاتِ القرآنيَّةِ، وقد فُصِلَتْ جملةُ ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾ عن التي قبلها؛ لشبه كمال الاتِّصال؛ فإنَّ لسائلٍ أن يسألَ بعد هذا التَّشويقِ بتقديم الجارِّ والمجرُورِ: فماذا قالتِ الملائكةُ؟ فجاء الجوابُ سريعًا: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾، وهو ما يقضي به حقُّ البلاغةِ ويقصُّه لسانُ الفصاحةِ، ومضمونُ ما قالوه يُؤكِّدُ إنشاءَ سؤالٍ في نفسِ المتلقِّي المتجاوب.

فائدةُ الإخبارِ عن تعجُّبِ الملائكةِ:

الاحتياطُ عنِ الوقوعِ في الإفسادِ وسفكِ الدِّماءِ

دلَّتْ همزةُ الاستفهام في قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ على التَّعجُّبِ[1] واستِبْعادِ تعلُّقِ الحكمةِ بذلك[2]، وهذا يُبيِّنُ أنَّ اللهَ ﷻ أباحَ لهم مثلَ هذا السُّؤالِ، وأنَّه ممَّا يجوزُ في حقِّهم، وأنَّهم ما سألوه إلّا وهم يعلمونَ أنَّه في دائرةِ الرِّضا الرَّبانيّ، وفائدةُ الإخبارِ عن تعجُّبِهم: أن نحتاطَ عنِ الوقوعِ بمثلِ ما وصفتِ الملائكةُ من الإفسادِ وسفكِ الدِّماء.

(1) للرَّازي تخريجٌ لمعنى التَّعجب على وجهٍ آخرَ، فقال في التَّفسير الكبير: 2/391: «إنَّ الإنسان إذا كان قاطعًا بحكمةِ غيرِهِ، ثُمَّ رأى أنَّ ذلك الغيرَ يفعَلُ فِعْلًا لا يقفُ على وجه الحكمة فيهِ، فيقول لَهُ: أتفعل هذا! كأنَّه يتعجَّب مِن كَمَال حكمتِه وعلمه، ويقولُ: إعطاءُ هذه النِّعم لمن يُفسد مِنَ الأمور التي لا تَهتدي العقولُ فِيهَا إلى وجه الحكمة، فإذا كُنْتَ تفعلُها - وأَغْلَمُ أنَّك لا تفعلها إلَّا لوجه دقيق وسِرٍّ غامضٍ أنت مطَّلع عليهِ - فَمَا أعظمَ حكمتَك وأجلَّ علمَكَ، فالحاصلُ أنَّ قوله: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ كأنَّه تعجُّبٌ مِن كمال علم الله تعالى وإحاطة حكمتِه بما خَفِيَ على كُلِّ العقلاء».

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/402.

نكتةُ تَكْرَارِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ ﴿فِيهَا﴾:

تحفيزُ النَّاسِ للحفاظِ على الأرضِ ببيانِ حرصِ الملائكةِ عليها

أُعيدَ ذِكْرُ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِيهَا﴾ في قولِه تعالَى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ مرَّتين؛ لأهميَّةِ الأرضِ لدى الملائكةِ؛ فكأنَّهم يقولون: أتجعلُ في هذه الأرضِ التي صفاتُها كَيْتَ وكَيْت من يُفسدُ فيها؛ لجهلِه بحقيقتها؛ فيُذْهِبُ جمالَها، ويُضيِّعُ بهجتها؟ وفائدةُ هذه النكتةِ: أن يُدرِكَ النَّاسُ ما تحويه هذه الأرضُ من زُخرفٍ وجمالٍ؛ فيُحسنوا بعد استخلافِهم، لا أن يُفسِدُوا فيها، فتعليمُ النَّاسِ حِرصَ الملائِكةِ وخَوْفَهم على الأرضِ من شأنه همزُهم وتنشيطُهم للحفاظِ عليها.

فائِدةُ الاكتفاءِ:

العنايةُ بالسببِ مقدَّمٌ على العنايةِ بنتيجته

لم يُذكر الجارُّ والمجرور مع سَفْكِ الدِّماء، فلم يقُل: (ويسفك فيها الدِّماء)؛ لسببين اثنين:

الأوَّل: اكتفاءً بذكرِه مرَّتينِ قبلُ، وفائدتُه بيانُ العنايةِ بشأنِ الأرضِ، فإنَّ إفساد الأرضِ أعظمُ من أن يسفكَ النَّاسُ بعضُهم دمَ بعضٍ؛ لأنَّه نتيجةٌ من نتائجِ الإفسادِ في الأرضِ.

الثَّاني: تحاشيًا عن الوقوعِ في الثِّقَلِ اللفظيِّ؛ بذكرِ اللفظِ ثلاثَ مرَّاتٍ في جملةٍ واحدة.

براعةُ الإيجازِ فيما يُشبِه الإطنابَ:

الجمْعُ بين دلالة العمومِ والكنايةِ لتصويرِ بشاعةِ القتلِ

جاءَ التَّعبيرُ في قولِه تعالَى: ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ دون القتلِ مع أنَّه أوجزُ لفظًا – فيما يظهرُ –؛ لسببين اثنين:

الأوَّل: دلالته على العُمومِ؛ لكونِه أشملَ من مجرَّدِ القتلِ؛ إذ يدخُلُ فيه الجَرْحُ أيضًا[1].

الثَّاني: لجعلِه كنايةً عن مطلَقِ القتلِ، ولو كان بغَيْرِ سَفْكِ الدَّمِ[2]، كالقَتْلِ بالخَنْقِ والإعدامِ والصَّعقِ ونحوِه.

(1) أبو بكر الجزائريّ، أيسر التفاسير: 1/40.

(2) ابن حجر، فتح الباري: 12/188.

والتَّعبير بالكِنَايَةِ أبلغُ مِنَ التَّصريحِ بذِكْرِ القَتْلِ؛ لِمَا في الكِنَايَةِ عَن القتْلِ بسفكِ الدِّماءِ مِنَ التَّفْظيعِ والتَّشنيع.

ويؤيِّدُ قصدَ التَّشْنِيعِ ثلاثةُ أوجه[1]:

أحدها: جمعُ الدَّمِ: ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؛ للإيماء إلى كثرةِ صدُور القتل مِنْهُم.

ثانيها: تحليةُ ﴿ٱلدِّمَآءَ﴾ باللَّام الدالَّةِ على الجنسِ؛ إذِ المقصودُ الدِّماءُ المسفُوكةُ بسببِ الفسادِ، هذا ما يقضي به السِّياق، ويُقرُّه الشَّرْعُ؛ فليس للملائكةِ أن تستنكرَ مُطلَقَ سَفْكِ الدِّماءِ لِوُجُوبِه شرعًا؛ وذلك لبيانِ شَنَاعَةِ الفعْلِ.

ثالثها: التَّعبير بالفعلِ المضارع ﴿وَيَسْفِكُ﴾ الدالِّ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، وتصويرِ المشْهدِ.

نُكْتَةُ عَطْفِ الخَاصِّ عَلَى العَامِّ:

بيانُ معنى الإفسادِ بأقبحِ ما فيه، تنبيهًا من الوقوعِ فيه

عَطفُ سفكِ الدِّماء على الإفسادِ في الأَرْضِ في قولِه ﷻ: ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ من عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فإنَّ سفكَ الدِّماء من جملة الإفسادِ في الأرضِ، ونُكْتَةُ العطفِ: بيانُ معنى الإفسادِ وخطورتِه بأقبحِ ما فيه، ففيها التَّنبيه على شناعةِ هذا الذَّنْبِ[2]، وأنَّه ذَنْبٌ عظيمٌ إذْ تعجَّبتِ الملائكةُ من إيجادِ من يرتكبُه في الأرضِ.

مظاهرُ التَّأْكِيدِ في جُمْلَةِ ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾:

بيانُ فضيلةِ العبادةِ التي لأجلِها جُعِلَ الخليفةُ في الأرضِ

جِيء بالمسنَدِ إِلَيْهِ مُقدَّما على المُسْنَدِ الفعْلِيِّ في قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾؛ لإفادةِ تقويةِ الخَبَرِ، وبيانِ أهميَّته؛ لِمَا فيه مِنْ إسنادِ فعلِ التَّسبيحِ إلى فاعلِهِ مرَّتين:

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/434.

(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 2/434، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/93.

إحداهما: إسنادهُ إلى الضَّمير المستَترِ وُجوبًا في فعل ﴿نُسَبِّحُ﴾.

والأخرى: إسنادهُ إلى ضَميرِ المبتدأ (نَحْنُ).

فيكُونُ الإسْنَادُ مكرَّرًا، وهو أحدُ مسالكِ تَأْكِيدِ الخَبَرِ.

وأُكِّدت الجملةُ أيضًا بالإتيانِ بِهَا اسميَّةً؛ لما تُفيدُه الجملةُ الاسميةُ مِنَ الدَّوام والثَّباتِ[1]، ولهذا التَّأكيدِ فائدةٌ وهي بيانُ عنايةِ الملائكةِ بالتَّسبيحِ والعبادةِ، وأنَّها علِمَتِ الغايةَ التي لأجلِها كان جعلُ الخليفة في الأرضِ؛ فأرادَتْ تلك الفضيلةَ لها.

فائدةُ ذكرِ قيدِ: ﴿بِحَمْدِكَ﴾:

الجَمْعُ بين الدّلالة الظَّاهرةِ والتَّعريضيَّةِ في أهميَّة الحَمْدِ

للقيودِ معانٍ بيانيَّةٌ لا يُستغنى عنها في الكلامِ الفصيحِ؛ فلم يأتِ الكلامُ: "ونحن نسبِّح ونقدِّس لك"، فذُكِرَ قيدُ ﴿بِحَمْدِكَ﴾؛ لتسليمِهِمُ الأمورَ للهِ تعالى، والمعنى: وأنتَ المحمُودُ بالهدايَةِ إلَى ذلك كلِّه[2]، ولمعرفةِ الملائكةِ بفضيلة عبادَةِ الحَمْدِ، ومكانته في قبولِ الأعمالِ، وللإشارةِ إلى أنَّ هؤلاء المفسدين أضعفُ ما يكونون فيه هو عبادة الحمدِ والشُّكرِ؛ فكان للقيدِ دلالة ظاهرةٌ، وأخرى إشاريَّةٌ تعريضيَّةٌ.

فَائِدَةُ العُدُولِ في تَعْدِيَةِ فِعْلِ ﴿وَنُقَدِّسُ﴾ بِاللَّامِ:

امتزاجُ دلالة التَّأكيدِ بالعمومِ؛ لتمحيضِ التَّقديسِ لله تعالَى في الأُمورِ كلِّها

العدُولُ عن تعديةِ الفعلِ بنفسِه إلى تعديته بحرفٍ له فائدةٌ بيانيَّةٌ؛ فقد عُدِّيَ فعلُ (قدَّس) بحرفِ اللامِ ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وهو يتعدَّى بنفسِه: "ونُقدِّسُكَ"، وللعدُولِ فائدتان:

الأولى: دلالة التَّأكيدِ والمبالغةِ فيه، ونظيرُ هذا قول العرب: شكرتُكَ، وشكرتُ لَكَ؛ فإنَّ تعديتَهُ بالحرفِ دليلٌ على تأكيدِ الشُّكرِ والمبالغةِ فيه؛ لئلَّا يُتوهَّمَ ضعفُهُ[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/406.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/118، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 1/507.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/406.

الثَّانية: دلالة العموم؛ فلو قال: "ونقَدِّسُكَ"؛ لفُهم أنّ التَّقديسَ مختصٌّ بذاتِه سبحانه، لكنَّ تقديسَهم يشمَلُ كلَّ فعلٍ فيه تقديسٌ هو للّه تعالى؛ فإنَّ مردَّ أمورِ العبادَةِ إليه سبحانه، وينْشَأُ عنه تمحيضُ التَّقديسِ للّه تعالَى في كلِّ الأمور.

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ الجُمْلَةِ بِـ(إنَّ):

جاء قول الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ مؤكَّدًا بـ (إنَّ)؛ لأحد وجهين[1]:

شُمُولُ عِلْمِ الله تعالى وعَظِيمُ حِكْمَتِهِ

الأوَّلُ: أنَّها وردت جوابًا عن سؤالٍ ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾، وجوابُ السُّؤال يحسنُ توكيدُهُ.

والآخر: أنَّ الملائكةَ نُزِّلُوا منزلةَ المُنْكِرين أَوِ المتردِّدين؛ لِما عرضَ لَهُمْ مِنَ الإشكالِ، بسبب عدم معرفتِهم بحكمة الله تعالى في جعلِه خليفةً في الأرض؛ فتوقَّعوا صدورَ الفسادِ عنْهُ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّسْبِيحُ وَالتَّقْدِيسُ:

يرجعان إلى معنًى واحدٍ؛ وهو إبعادُ النَّقْصِ أو السُّوءِ عَنِ الشَّيءِ.

والفرقُ بَيْنَهُمَا[2]: أنَّ التَّسبيحَ تَنْزِيهُ اللّه تعالى عمَّا لا يَلِيقُ بِهِ مِنْ صِفَاتِ النَّقصِ، والتَّقْدِيسُ: تَنْزِيهُ الشَّيْءِ عَنِ النَّقائص.

فالتَّسبيح خاصٌّ باللّه تعالى، والتَّقديس يُستعمل في حقِّه سبحانه، وفي حقِّ غيرِه، ولذا يُقال: الأرض المقدَّسة، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: 21]، وبناءً على هذا؛ فالعلاقةُ بينهما العمومُ والخُصوصُ المُطلَقُ؛ فالتَّسْبِيحُ أخصُّ مِنَ التَّقديس.

واختار ابنُ عاشور[3] أنَّ التَّسْبِيحَ يكون قولًا – أو قولًا مقرونًا بعملٍ – دالًّا علَى التَّعظيم، بخلاف التَّقديس؛ فيكون بالفِعْلِ، ويكون بالاعتقادِ. وغالِبُ الاستعمالِ القرآنيِّ يؤيِّد ما ذهب إِلَيْهِ ابنُ عَاشُورٍ؛ فالعلاقةُ بينهما التَّباينُ.

---

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/122، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/407.

(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 124.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/405-406.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأول، من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة [إشراف مجمع القرآن الكريم،
قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 1 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-52-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 1 : من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-52-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9609262 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»